

المطلب الأول

العبادة لغير الله

هذه هي الخصيصة الكبرى المشتركة بين كل الجاهليات في التاريخ، بل هي الأصل والقاعدة التي تنشأ منها الجاهلية، لأن الابتعاد عن أول خطوة في أساس المنهج القويم، إنما يولِّد الاضطراب في كيان الإنسان كله فيتمخض عن هذا التمزقُ والتشتيت والحيرة في الفكر، منتجاً سوء العلاقة بين الإنسان وربه[1] عز وجل، وقد صوَّر القرآن ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦]. فالإعراض عن الله في هذه الحياة، إنما هو قطع الصلة به! ناتجاً عن ذلك الضنك والمشقة، مهما يكن الإنسان

(١) انظر جاهلية القرن العشرين، محمد قطب ٤٢ ـ ٤٣.

في سعة ومتاع، إنه ضنك الحيرة والشك والحرص على الدنيا والحذر من الفوت، فإذا انقطع الاتصال حلّ الضلال، ونتيجة الضلال الإسراف ونسيان المنهج، ونتيجة الإسراف والنسيان العقوبة بالضنك في الدنيا والعمى في الآخرة، فلقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه. أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً، فلا جرم يعيش معيشة ضنكاً ويحشر يوم القيامة أعمى[1].

العبادة لله هي المسألة التي تميّز من أجلها المسلم عن الكافر، ومن أجلها شرع الله الجهاد. كما قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وهذه السمة لم تنفرد بها الجاهلية المعاصرة وحدها، وإنما منيت بها الجاهليات كما تبيّن سابقاً. ثم تناسلت حتى وصلت إلى الجاهلية المعاصرة بثوب جديد، فهي قضية أشهر من أن يشار إليها، ولم يقف الأمر عندها وإنما تعدّاه إلى الإلحاد الكامل الذي سبق الجاهلية التي كانت قبيل الإسلام، والتي ندّد بها القرآن الكريم كونها تعبد الأصنام، فهي تعبدها لا لذاتها، وإنما لتقربهم إلى الله زلفى، فرفض ذلك القرآن الكريم قائلاً: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

فالجاهلية المعاصرة قد انحرفت بأشد مما انحرفت غيرها فأنكرت وجود الله جهرة، وإن أقرت بوجوده نفت عنه صفة الخلق، وإن أقرت بأنه الخالق رفضت ألوهيته وحاكميته، فلم تعبده حق العبادة ولم تنفذ

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/٢٣٥٦.



شرعه ولم تلتزم منهجه[1].

فكثرت بهذا طرق العبادة لغير الله، فمنهم من عبد الطاغوت ومنهم من عبد الدنيا، ومنهم من عبد المرأة ومنهم من عبد الطائفة والقبيلة، ومنهم من عبد هوى نفسه فسار خلف فجورها رافضاً تقواها، ومنهم من عبد الأرض والمسكن، ومنهم.. ومنهم. وقد وضح القرآن الكريم أن عبادة الآلهة المزعومة من دون الله إنما هي ضلال وانحراف عن الدين الحق، وأن العبادة هي ما كانت خالصة لله دون أي شريك معه، كما قال تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢]، ثم بيَّن أن العبادة إن لم تكن كذلك فهي استكبار واستنكاف عن عبادة الله القائل: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧٢]، (والاستكبار دون الاستنكاف، ولذلك عطف عليه، وإنما يستعمل من حيث الاستحقاق بخلاف التكبّر فإنه قد يكون بالاستحقاق)[2].

فهؤلاء الذين يتخذون آلهة يطلبون عندها العزة والغلبة والنصرة من دون الله سيتبرأ كل منهم من الآخر[3].

المطلب الثاني

حكم الجاهلية

هذه هي السمة الثانية والخصيصة الأخرى النابعة من عدم الإيمان الحق بالله وعدم الإسلام له، والتي تشترك فيها كل الجاهليات القديمة والمعاصرة، فهي قضية مترابطة، إما إيمان بالله ناشىء عنه انقياد واستسلام واتباع لما أنزله، وإما جاهلية واتباع لأهواء البشر، والله تعالى يقول: ﴿وَأَنِ

---

(١) انظر كيف نكتب التاريخ الإسلامي، محمد قطب ص ٢٥٥.

(٢) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ط١، ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٥١/١.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٢٣٢٠/٤.

أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ [المائدة: ٤٩]. فالتحذير هنا من الفتنة ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذبة وخونة، ولا تتبع أهواءهم، والأهواء هنا تختلف من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة ومن أمة إلى أمة، لكن عاملها المشترك دائماً (أهواء)، والأهواء من الهوى أي هوى فريق من الناس يقودون به الآخرين لمصلحة معينة لفرد أو جماعة يسخّر من أجلها بقية الخلق على حساب (هواه)، وأصل الهوى الميل إلى الشيء، وسمي بالهوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه[1]، فثمرته في النهاية الخسران وإن مال إليه الإنسان.

ولهذا أنكر تعالى على من خرج عن حكمه المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم[2]، فصوّر القرآن الكريم ذلك الإنكار والخروج قائلاً: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]. أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون. ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء[3]، فكيف يبتغون حكم الجاهلية، ويحكمون بشريعة من صنع البشر ويقبلونها، فهم إذن في جاهلية، وهم في دين من يحكمون شريعته ومنهاجه، وليسوا بحال في دين الله لأنهم رفضوا ذلك، والذي رفض شريعة الله، فإنه يقبل بشريعة

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/٢٤ ـ ٢٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٥٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٥٩٠.



الجاهلية، ومن أحسن من الله حكماً، ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ويحكم فيهم خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ فحكم الجاهلية هي حكم البشر للبشر، وعبودية البشر للبشر، ورفض ألوهية الله والخروج من عبوديته إلى عبودية غيره، إنه مفترق الطريق فإما حكم الله، وإما حكم الجاهلية ولا وسط ولا بديل[1]، وقد نفى الله الإيمان عن الذين لا يحكمون الشرع الحكيم قائلاً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. والنفي هنا نفي مؤكد بتكرار أداة النفي وبالقسم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولم يكتف تعالى بمجرد التحكيم، بل حتى لا يتحرجوا ولا يجدوا الضيق في نفوسهم فلا بد من اتساع صدورهم لذلك وسلامتها من القلق والاضطراب، ولم يكتف أيضاً تعالى بذلك، وإنما لا بد أن يضموا إلى التسليم الانقياد الكامل لذلك الحكم، ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أتم التسليم، ولهذا أكده بالمصدر المؤكد وهو قوله تعالى: ﴿تَسْلِيمًا﴾ الموضح هنا أنه لا بد من التسليم المطلق وليس مجرد التسليم. والتحكيم هنا في أي شيء؟ ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ وهنا اسم الموصول مع صلته وهو من صيغ العموم، والعموم والشمول من ناحية الأجناس والأنواع، كما أنه في ناحية القَدْر، فلا فرق بين نوع ونوع ولا قليل وكثير، فلا بد أن يحكموك في أي شيء شجر بينهم[2].

ثم نفى الله تعالى أيضاً الإيمان عن من أراد التحاكم إلى غير ما جاء به رسول الله ﷺ، كما صوَّر ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]. فإن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ تكذيب لهم فيما

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٢/٩٠٤ ـ ٩٠٥.

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي ١٦٨/١٠ وما بعدها.

ادعوه من الإيمان، لأنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام مع الإيمان في قلب عبد أصلاً، وإنما أحدهما ينافي الآخر، فهؤلاء الذين يزعمون الإيمان أمروا أن لا يتحاكموا إلى الطاغوت، وإن كل من حكم بغير ما جاء به الإسلام، أو حاكم إلى غيره فقد حكم بالطاغوت وحاكم إليه. وإنه مأمور أن يكفر بذلك الطاغوت وأن لا يتحاكم إليه، وأن لا يبدل قول الله، لأن من بدل قول الله فهو ظالم بذلك، والله تعالى يقول: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]. ثم سجَّل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الآيات على أقوال:

الأول: أنها واردة في اليهود دون المسلمين، وهذا قول ابن مسعود وحذيفة والبراء وعكرمة.

والثاني: أنها نزلت في أهل الكتاب، وحكمها عام في جميع الناس، وهذا قول الحسن.

والثالث: أراد بالكافرين فريق أهل الإسلام، وبالظالمين اليهود وبالفاسقين النصارى، وهو قول الشعبي. واختاره أبو بكر ابن العربي.

والرابع: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فهو كافر، ومن لم يحكم مقرّاً به فهو ظالم فاسق، وهذا قول ابن عباس(١).

والكفر هنا إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لا ينقل عن

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ٦/٢٥٣، والنكت والعيون للماوردي ١/٤٧٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/١٩٠.



الملة، وكفر الاعتقاد: أن يجحد أحقية حكم الله ورسوله، أو اعتقد أن حكم غير الإسلام أحسن من حكم الإسلام أو مثله، أو اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله.

وأما كفر العمل الذي لا يخرج عن الملة وهو أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهوى(١). هذا وإن كان لا يخرجه من الملة إلا أنه معصية كبرى، لكنها كما يقول ابن عباس: (كفر دون كفر) وقوله أيضاً: (ليس بالكفر الذي تذهبون إليه)(٢) فيجب أن تؤخذ الشعائر التعبدية عن طريق كتاب الله وما جاء به رسول الله الذي قال الله لنا بحقه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، فليس عبداً لله من يتلقى الشرائع والأحكام من أحد سوى من الله، وعن نفس طريق الرسول ﷺ الذي أذن له ربه، والله تعالى يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ؟﴾ [الشورى: ٢١]، فالشرائع التي مردُّ الأمر فيها للبشر، ومصدر السلطان فيها هم البشر هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله؟، فالذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم مخالفة لدين الله، فهؤلاء يقومون من الناس مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مكان العبيد(٣)، وقد صوَّر القرآن الكريم ذلك بقول الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠] يقول الشيخ أحمد محمد شاكر: (أفيجوز ـ مع هذا ـ في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله

(١) انظر كتاب حكم الجاهلية أحمد محمد شاكر، ط١٩٩٢/١ كلمة بعنوان تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف، ص٨ ـ ١٧.
(٢) انظر جامع البيان للطبري ٢٥٦/٦.
(٣) انظر معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م، ص٦٧.

الأهواء والآراء الباطلة يغيِّرونه ويبدِّلونه كما يشاؤون لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟)[1]، فكل من يعرف دينه ويؤمن به، وبأن هذا القرآن كتاب محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة رسوله ﷺ واجبة قطعية الوجوب في كل حال، فعليه أن يؤمن أن ولاية القضاء في ظل (الياسق العصري)[2] باطلة بطلاناً لا يلحقه التصحيح لأنها كفر بواح لا خفاء فيه، ولا عذر لأحد اتخذه وسار في منهجه الباطل.

ولأنها تنحية لشريعة الله ورميها بالرجعية والتخلف، وبالتالي فلم تعد تواكب التقدم الحضاري! فمن وجد ذلك فليعلم أنها ردة جديدة على حياة المسلمين ورجوع إلى الجاهلية، علماً أن الأمر لم يقتصر على ذلك فحسب، بل تعدى إلى أبعد منه بكثير، حيث استبدل الجاهليون ما هو أدنى بالذي هو خير، فحلَّت الجاهلية الكافرة مستبدلة كتاب الله وتشريعاته بأفكار معزوة إلى عقول البشر، وإن التشريع من خصائص رب العالمين جلَّ شأنه، فمن ادعاها لنفسه فقد نصبها نداً من دون الله، وهذا ما حدا بالكثير من الناس أن ينادوا بفصل الدين عن الدولة، ظانين أنهم في دعوتهم هذه يدعون إلى التقدمية زاعمين فيها تحرراً وانطلاقاً، فأراد العدو أن يحقق ذلك الهدف على أيدي أعوانه في ديار المسلمين، وذلك بجعل الإسلام بين سواري المسجد وجزء من أروقة المحاكم الشرعية، كما ارتضت بذلك

---

(١) عمدة التفسير ١٧٣/٤ نقلاً عن حكم الجاهلية لأحمد شاكر ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الياسق: وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق من شرائع شتى (من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها) وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، وحكم بها التتار، وسار عليها أولاد جنكيز خان والتزموا بها كالتزام أول المسلمين حكم القرآن، وصار ذلك الكتاب ديناً لم يخالفه أحد منهم بوجه من الوجوه. ويسمى الكتاب أيضاً (ياسة) فزيدت في أوله السين فصار (سياسة) وهي التعليمات الموجودة فيه والتي نقشت في صفائح من فولاذ وجعلت شريعة للتتر فالتزموا بها بعده حتى قطع الله دابرهم، انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٩٠/٢، ثم انظر حكم الجاهلية لأحمد شاكر ص ٢٦ ـ ٢٧.



الكنيسة، فهيمنت السلطة الحاكمة في أوربا على النظام المدني والقوانين الوضعية التي تحكم كل شؤون الحياة بمعزل عن تلك الكنيسة، وكان الضحية هم الشعوب حيث انتابتهم الحيرة فكان التناقض وكانت الازدواجية في ميادين العقل والفكر والقلب والوجدان والوجود والكيان، وحتى في السلوك اليومي على المجتمع ذاك. كل ذلك بسبب التناقض الحاصل بين الكنيسة وبين رجالات السلطات، حتى حمل الأعداء من المستعمرين والمستشرقين لواء فصل الدين عن الدولة وردد به بعض الناس من ديار الإسلام! هدفهم في ذلك وغايتهم تفتيت الأمة وتقسيمها إلى وطنيات وأقاليم ودويلات(١).

علماً أن إقصاء الشريعة وإحلال أهواء البشر محلها هذا من الأشياء التي كفَّر العلماء قديماً وحديثاً فاعلها، لأنها معلوم من الدين بالضرورة، والله تعالى بيَّن ذلك في كتابه قائلاً: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكما أنه سبحانه وباعتراف الناس مؤمنهم وكافرهم هو خالق السماوات والأرض، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان والحكم والسيادة(٢).

يقول ابن القيم رحمه الله: (والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخيَّر فيه مع تيقُّنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأ، فهذا مخطىء له حكم المخطئين)(٣)، فكيف بمن يخالف حكم الله إذا خالف هواه، ويرجع إليه إذا وافق غرضه وهواه كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ

---

(١) انظر كتاب المنهزمون، يوسف العظم دار القلم بيروت، ط٢، ١٩٧٧م، ص٦٣ ـ ٦٥.
(٢) انظر في ظلال القرآن ١٢٩٧/٣.
(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٣٣٧/١.

مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠].

والإذعان في الآية هو الخضوع والطاعة والانقياد، يقال: أذعن فلان لحكم فلان إذا انقاد إليه. والمرض هو الشك والريب. والحيف هو الجور في الحكم والظلم[1]، وإن الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان والأدب الحق، وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيء الأدب مريض القلب منحرف في الفطرة، لأن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف لأن كل خلقه أمامه سواء ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وإن البشر مهما ترفع فلا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه ومصالحه، ومنهم يحصل الحيف إذا لم يرضوا بحكم الله ورسوله[2] فتراهم إذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طعنوه، وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ. وإن جاء الحق ناصراً لهم، وكان لهم، صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهواءهم)[3].

ثم لا يجوز تقديم حكم البشر على حكم الله، وكذلك لا يجوز مساواة ذلك، بل لا بد من تقديم أمر الله وجعله فوق كل شيء، وقد ذمَّ الله تعالى من أراد أن يعقد المساواة بين الله وبين خلقه سواء في الحكم أو في غيره، وجعل ذلك كفراً كما صوَّر القرآن الكريم هذا في

---

(١) انظر تفسير النكت والعيون للماوردي ١٣٨/٣. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩٣/١٢ ـ ٢٩٤.

(٢) انظر تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٢٨/٢ ـ ١٢٩، وفي ظلال القرآن ٢٥٢٦/٤.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٥٣/١.



قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]. يقول ابن القيم: (هذه التسوية إنما كانت في الحب والتأليه، واتباع ما شرعوا لا في الخلق والقدرة والربوبية، وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]. وأصح القولين أن المعنى: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه كما يعبدون الله، ويعظمون أمره، وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه: هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله)[1].

المطلب الثالث

معايير الجاهلية

إن المجتمع المعاصر قد جمع بين معايير متعددة بين الخير والشر، وإن جاهليته تقترب من الشر لبعدها عن الله، وتمرّدها على كل شيء يأتي من طريق الوحي الرباني، الأمر الذي دخلت من أجله في عداد الجاهليات، ولم ينفعها ما اشتملت عليه من جوانب الخير، ومن تلك المعايير التي ركزت عليها الجاهلية:

أولاً: قاعدة التقليد الأعمى: وهي التي سار عليها أهل الجاهلية أولهم وآخرهم. كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، أي إلا قال أهل الترف الذين أبطرتهم النعمة: إنا وجدنا أسلافنا على ملة ودين وإنا مقتدون بهم، والآية دالة على أن التقليد في نحو هذا ضلال قديم

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ٣٩٦.

وأن أسلافهم لم يكن لهم سند متطور يعتدُّ به، وإنما صرفهم التنعم وحب البطالة عن النظر إلى التقليد الأعمى[1].

لكن الجاهلية سارت بتقليد الجاهليات الأخرى، إذ ضربت على المسلمين قواعد وثنية لم تبن على شريعة ولا دين، بل هي مدمرة للأخلاق والآداب والأديان، تلك القواعد التي فرضها على المسلمين أعداء الإسلام واستبدلوها بدينهم الحق فصارت تلك القواعد هي الدين في نظرهم[2]، وصار الدين تقليداً رجعياً عندهم جامداً لا يوصلهم إلى شاطىء الأمان كما يزعمون، فانحدروا بتقليدهم الأعمى إلى الهاوية، فأي معيار هذا الذي أرداهم فأصبحوا من الخاسرين، وقد صوَّر القرآن الكريم ذلك في كثير من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦١ - ٦٣]، فصدودهم ناقض البديهيات الفطرية وناقض مزاعمهم فاختلفت بذلك معاييرهم[3].

ثانياً: الاستدلال بقوة قوم أعطوا قوة في الفهم أو الملك أو المال أو الجاه[4]، أو ما شابه ذلك كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فمعيار الجاهلية ليس الدين، إذ أن ذوي السلطان والجاه والمال هم الذين يشار إليهم، وهم أهل الحل والعقد وذلك لكثرة ما هم فيه، ولو كانوا من أراذل القوم، وهذا مؤكد في الجاهلية المعاصرة أشد تأكيداً من الجاهليات السابقة والتي تحدّث القرآن عنها بقوله

(١) انظر تفسير أنور التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٧١/٢.

(٢) انظر حكم الجاهلية، أحمد محمد شاكر ص ٣٢ ـ وما بعدها.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٦٩٤/٢.

(٤) انظر مجموعة التوحيد لمجموعة من العلماء، دار الفكر ص ٨٦.



تعالى: ﴿... قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ...﴾ [البقرة: ٢٤٧] فقد اعترضوا على نبيهم حين عيَّن لهم ملكاً منهم وهو (طالوت) واحتجوا بفقره، لأن مقاييسهم كانت مقاييس جاهلية، ناسين حكم الله الذي يؤتي ملكه من شاء[1]، فجاهليتهم ترفض الاقتداء بالأنبياء وأولي العلم، وتأمر باتباع الفسقة والفجار.

والاقتداء بالفسقة والفجار! أمر مرفوض وإن كان معياراً تستخدمه الجاهلية، والذي صوَّره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، فالأحبار علماء اليهود، والرهبان مجتهدو النصارى في العبادة، هؤلاء الكثير منهم يأكلون أموال الناس بالباطل باسم حماية الدين، والقيام بالشرع، ويمنعون أهل دينهم ويصدونهم عن الدخول في دين الإسلام[2]. فمن أراد السير في الطريق السوي عليه أن يتجنب أهواء أهل الضلال، لأنهم قد ضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم عن اتباع وقصد طريق سيدنا محمد ﷺ. (وتكرير ضلوا على معنى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذين سنُّوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى)[3].

ثالثاً: الغرور: وذلك بالاستدلال على صحة فعلهم بكثرة التبع لهم، وقلة أهل الحق وكونهم من الضعفاء، وهذا ديدن الجاهليات منذ أن قالوا للأنبياء: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١] وقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وقولهم أيضاً لنبي الله هود: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٥٣٤.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/١٢٢.

(٣) المصدر نفسه ٦/٢٥٢.

ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ...﴾ [هود: ٢٧]، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه، لأن مقاييسهم التي يعتمدونها هي مقاييس جاهلية[١]، وليس الأمر كذلك وإنما الشرف بمقدار الالتزام بهذا الدين كما صوَّر ذلك القرآن الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] حتى اعتقد أهل الجاهلية بأن كثرة الأموال والأولاد هي دليل على نجاح الفكرة وفوزهم حتى عند الله، حيث غرّتهم الحياة الدنيا فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] فردَّ الله عليهم بأن أفضلية الرزق ليس معياراً لصحة العمل، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: ٧١]، ثم بيَّن الصواب بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] أي من أخلص ذاته كلها لله فإنه صاحب الأفضلية[٢].

وها هي الجاهلية ترمي بالفساد والتطرف من أراد الإصلاح للمجتمع، ومن جاهد لإيصال الخير للبشرية والعودة إلى المعين الصافي، فمن فعل ذلك وُصم بالشر وحورب بالأصولية، واتهم بالقتل وأنه يريد أن يبدِّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد.

رابعاً: رذائل الأخلاق: (إن البشرية اليوم تعيش في جحر كبير، فنظرة إلى صحافتها وأخلاقها وأزيائها ومراقصها، وحاناتها، ونظرة إلى شعارها المجنون للحم العاري والأوضاع المثيرة والإيحاءات المريضة في الأدب والفن والإعلام كلها، بجانب وسائل خسيسة لجمع المال وتثميره بعمليات النصب والابتزاز والاحتيال، وكذلك التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي، الذي أصبح يهدد النفوس داخل البيوت وخارجها، نظرة إلى هذا كله تكفي

(١) انظر صفوة التفاسير للصابوني ٩٤/٥.

(٢) انظر في ظلال القرآن ١٠٤/١.



للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية)[1].

أما المرأة وما آلت إليه من الوضع المهين والمعاملة بالعسف، حتى نسيت أو تناست أن عزّها وكرامتها بالتزامها بدينها، وأن دينها هو الذي يضمن لها الحقوق ويحيطها بسوار الشرف، فلا أحد يجرؤ أن يمدَّ يده ليلمس زهرتها، ولكي تبقى خالصة لذلك الزوج الذي تعيش في كنفه، وبالتالي تنتظم الأسرة، وبها ينتظم المجتمع كله على أساس توحيد الخالق ووحدة البشرية[2] كما صوَّر ذلك القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾ [النساء: ١]، والذي حدا بها أن تنزع لباس التقوى الذي يواري سوأتها، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما آلت إليه المرأة بالجاهلية المعاصرة التي باعت فيه كرامتها وسترها فأصبحت متبرجة ربما أكثر تبرجاً من الجاهلية الأولى التي حذر الله منها بقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فقد كانت المرأة في الجاهلية كما يقول ابن كثير: (تمرُّ بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقراط آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يتسترن في هيئاتهن وأحوالهن)[3] فهذه غاية ما وصلت إليه الجاهلية الأولى في التبرج. ولو نظرت إلى ما فعلت المرأة في الجاهلية المعاصرة لرأيت العجب حين ترى أعلى صور الخلاعة في المرأة المتسكعة في كل مكان من أمكنة الجاهلية، إلى جانب ما حلَّت بها من الإهانة التي لم تحصل على شيء حتى من حطام الدنيا الزائل، فبما أنها باعت عزها وشرفها، لتحصل على الدنيا كلها، لم يسلم لها حتى حقها في الميراث،

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥١٠/١ ـ ٥١١.
(٢) المرجع نفسه ٥٥٧/١ ـ ٥٥٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨٩/٥.

إنما استأثر بالتركة الرجال الأقوياء من الجاهليين.

المطلب الرابع

ولاء الجاهلية

الولاء في اللغة: المحبة.

والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرب والمالك، والسيد والمنعم والناصر والمحب وغيرها[(١)].

والموالاة: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه، ووالى فلان فلاناً: إذا أحبه[(٢)].

والموالاة (بالضم) من والى القوم كما في قوله عليه الصلاة والسلام: **«من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»**[(٣)]، يعني بذلك ولاء الإسلام.

والولاء ضد البراء.

فالبراء: هو التخلص والتنزه والتباعد، وبرىء إذا أنذر وأعذر، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [براءة: ١].

والبراء والبرىء سواء، وليلة البراء هي الليلة التي يتبرأ فيها القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر.

والبراء هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار. ومصداق ذلك قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام مع أبيه حين وعده أن يستغفر له حيث قال له: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧]، فلما عرف إبراهيم أن أباه قد أصرَّ على الكفر

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣/٩٨٥ ـ ٩٨٦.

(٢) انظر المصدر نفسه ٣/٩٨٥ ـ ٩٨٦، وانظر القاموس المحيط ٤/٢٩٤، ط٢.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في المسند عن البراء ٤/٢٨١، وأيضاً عن زيد بن أرقم ٤/٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، والترمذي في المناقب ٩/٣٠٠، ح٤/٣٧، وقال: حديث حسن صحيح غريب. وقال الألباني: صحيح انظر صحيح الجامع الصغير ٦/٣٥٣، ح٦٣٩٩.



تبرأ منه، وقد صوَّر القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

والولي ضد العدو أيضاً كقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٥] «فكل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذه ولياً»[1]، والله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]. يقول ابن تيمية: الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً)[2]، وإن أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله، وقد بيَّن القرآن الكريم أن الولاء لا يكون إلا لله ولأوليائه، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ [المائدة: ٥٥].

ولا يكفي في الولاء والبراء مجرد الحب والبغض، بل لا بد مع ذلك من لازم المحبة والنصرة والإكرام والاحترام باطناً وظاهراً. وكذلك لا بد من لازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه وإظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة في أعداء الله، والبعد عنهم باطناً وظاهراً، كما أشار القرآن إلى القدوة الحسنة في ذلك قائلاً: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

(١) لسان العرب ٩٨٦/٣.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣١٢/١، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ط٣، ١٣٨٢هـ، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ص٣٠.

وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ...﴾ [الممتحنة: ٤].

فالولاء هو محبة الله ونصرة دينه ومحبة أوليائه ونصرتهم كذلك، والبراء هو بغض أعداء الله ومجاهدتهم، خلافاً لولاء الجاهلية التي توالي أعداء الله من الشياطين والظالمين والكافرين واليهود والنصارى والمنافقين، وكل أعداء الله الذين نهىٰ الله عن موالاتهم والركون إليهم، وأمر بمعاداتهم كما صوَّر القرآن الكريم ذلك من خلال الآيات القرآنية الكريمة فقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩] وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٤٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وأخيراً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ٦٠].

فحريٌّ بالمؤمن أن يعرف من يوالي ومن يعادي، ومن يحب ومن يبغض، ثم يضع نفسه في الميزان ليرى أين مكانه، وفي أي صف هو، فإن كان في صف الرحمن، فهو من المفلحين وإلا فليتق الله ربه، لأن الموالاة أصبحت في الجاهلية المعاصرة مبنية على أمر الدنيا، وإذا كانت كذلك فما تلبث أن تزول زوال العرض الزائل، وهذا لا يجدي لأهله نفعاً، وإنه لا التقاء بين الفريقين لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإذا كان أولياء الرحمن مصرِّين على اتباع هدى ربهم، فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردي في حمأة الجهل والضلال، وقد صوَّر القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] فأولياء الرحمن هم الذين ينتمون إليه سبحانه ويستظلون برايته ويتولونه ولا يتولّون أحداً غيره، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان، ومن وراء



القوميات والأجناس[1].

والجاهلية المعاصرة تجعل التقاء الناس ليس على عقيدة الولاء لله ولدينه، وإنما على أساس العرف والجنس واللون والتراب، بينما المفاضلة الحق بيَّنها القرآن بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وهو بهذا ألغى فخر الجاهلية بالآباء وغيرها، حتى أراد الإسلام أن يعلن الولاء لله بفعل رسول الله ﷺ فجعله يتبرأ من أقاربه الذين ليسوا على دينه. فقال فيما رواه عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر: **«إن آل فلان ـ أناس من أقاربه ـ ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين»**[2] وقال ﷺ: **«إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وأين كانوا»**[3]، وقد صوَّر القرآن ذلك بقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤]، فالمؤمنون هم أولياء الله، وغيرهم هم أولياء الشيطان وهم الذين يتبعون أهواءهم، فكل من كذَّب رسول الله ﷺ وأعرض عن متابعته، وحاد عن شريعته، ورغب عن ملّته، واتبع غير سنته، ولم يتمسك بعهده، ومكّن الجهل من نفسه، والهوى والفساد من قلبه، والجحود والكفر من صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه فهو وليّ الشيطان[4].

فالولاية للمؤمنين والبراء والعداء لأولياء الشيطان أمر هام، لأنه يكشف ألاعيب الخونة، وهم يسعون لتذويب المسلم في خضمّ الجو الجاهلي المعاصر، وتمييع ولائه لربه ودينه وإخوانه المسلمين، هذه الحقيقة الناصعة

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤١٣/١.

(٢) الحديث متفق عليه انظر صحيح البخاري كتاب الأدب ٤١٩/١٠، ح ٥٩٩٠، وصحيح مسلم في الإيمان ١٩٧/١، ح ٢١٥.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٣٥/٥، وهو حديث صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير ١٨١/٢، ح ٢٠٠٨.

(٤) انظر هداية الحيارى لابن القيم، ص ٧.

يحاول الأعداء تزييفها بقولهم: إن الكفار أصدقاء شرفاء أوفياء، لهم علينا الاحترام والتقدير، وربما الحب والتبجيل والإجلال والتعظيم، ثم يقول هؤلاء: إن القوم متقدمون فعلينا أن نسلك مسلكهم ونأخذ حضارتهم برمّتها حلوها ومرها، حقها وباطلها، فنقتفي آثارهم في كل وضع وحال، لأننا متأخرون ولا بد أن نصل إلى ما وصلوا إليه ولا يكون ذلك إلا بتقفّي تلك الآثار[1].

ولم يعلم هؤلاء القوم أن منطلق الولاء لهؤلاء يعني جاهلية جديدة، وأن منطلق البراء منهم والعداء لهم هو القاسم المشترك بين الإسلام وبين أعدائه بأصنافهم من كفار ومشركين ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه، وأنه لا لقاء في منتصف الطريق مع هؤلاء - كما بيّن ذلك إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. لأن طبيعة المنهج الإسلامي القويم هي دخول الناس في دين الله وإخراجهم من عبادة العباد. ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة لا التقاء بينهما مما حدا بأصحاب المناهج الأرضية على هدم المنهج الرباني الذي يهدد وجودهم وأوضاعهم قبل أن يهلكهم، فهي حتمية لا اختيار فيها لهؤلاء ولا لهؤلاء[2]، وقد صوّر ذلك القرآن الكريم في كثير من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨]. وقوله عز وجل: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ..﴾ [البقرة: ١٠٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

---

(١) انظر الولاء والبراء في الإسلام محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، ط١، دار طيبة، الرياض، ص١٢١.

(٢) انظر الولاء والبراء في الإسلام محمد بن سعيد القحطاني، ص ١٢٨.



وهكذا فإن ولاء الجاهلية لشياطينها، وإن عداءها هو من أجل العقيدة التي يعتنقها المجتمع المسلم، ذلك العداء القائم حتى يردوا أهل الإسلام إلى جاهليتهم إن استطاعوا، وذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] فالثمن الوحيد الذي ترتضيه هو التخلي عن ملة الإسلام واتباع مللهم الباطلة، ولهذا ترى المعركة حامية مستمرة تحت رايات الجاهلية برمّتها لهدم عقيدة المجتمع الإسلامي، وهم يختصمون فيما بينهم ولكنهم يلتفون دائماً في المعركة ضد الإسلام، وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى ـ في خبث ومكر وتورية ـ لأنهم جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة الإسلامية وجيشانها في النفوس، فلم يفلحوا، فتراهم أعلنوا الحرب بأسماء مستعارة باسم الأرض والحدود، وباسم الاقتصاد والأرزاق والنفط، وباسم القوة العسكرية والنووية، والنظام العالمي الجديد وغير ذلك من المسميات، والحقيقة هي معركة ضد العقيدة لتحطيم صخرة الإسلام التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً! ولكنهم ألقوا في روع المخدوعين منا أن حكاية العقيدة والدين قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها أو خوض المعركة باسمها، وهذه هي سمة المتخلفين المتعصبين، وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد[(١)]. ثم زرعوا الفتنة بين المسلمين حتى صار المسلمون إلى افتراق، وفي بعض الأحيان يكون بأسهم بينهم شديداً، ووالى كثير منهم من لا يودُّ للإسلام وأهله إلا خبالاً[(٢)].

وخلاصة القول: إن حقيقة ولاء الجاهلية لبعضها وعدائها لدين الله افتراق المنهجين، فإما دين الله وموالاة عباده المؤمنين، وإما دين الباطل واتباع الهوى والشيطان والشهوات، وإذا كان هؤلاء الأعداء يقولون ويتباهون بالكثرة والقوة والعدد والعدة، فعلى أولياء الله أن يعتزوا بدينهم، وأن يستعلوا فوق

(١) انظر في ظلال القرآن ١/١٠٨.

(٢) الوحدة الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٧٧م، ص٩.

وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣] فلا بد إذن أن ينتبه أهل الإسلام، وأن يستقر في حس الدعاة إلى الله أن الكفر والجاهلية كلها قد تلتقي في مرحلة من المراحل على إبادة الإسلام والمسلمين، وتتناسى الخلافات بينها وما يسمى (باستراتيجية المنهج)، فالمصلحة فوق المبدأ.

فعلى المسلمين أن يكونوا دائماً على غاية من الحذر من تلك المخططات التي تحاك وتبرم، ليدركوا كيف يواجهونها في اللحظة المناسبة، ولا يستسلمون لليأس والخوف. ولنا مثل في الجاهلية السابقة ما فعله اليهود الذين شهدوا لقريش أن دينها خير من دين محمد ﷺ، وهو نقض لكل الأسس والمبادىء التي قام عليها وجودهم[١]. وكذلك ما فعله الأحزاب يوم الخندق يوم أرادوا أن يرموا الإسلام عن قوس واحدة.

المبحث الثاني
أنواع الجاهلية المعاصرة

إن العالم الإسلامي كان أمة واحدة تظلّله راية (لا إله إلا الله. محمد رسول الله)، ورغم خطط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين، إلا أنهم إلى حدّ ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة، لأنهم يدينون بدين واحد ويؤمنون بكتاب واحد وسنة واحدة ويتحاكمون بشريعة واحدة. ولكن نتيجة لضعف المسلمين وتمكُّن العدو منهم، سهل استعمارهم من قِبل أرذل خلق الله وهم اليهود والنصارى، ومن جاء بعدهم من الملاحدة كالشيوعيين وغيرهم، فأخذ هؤلاء الأعداء يبثُّون سمومهم ويغرسون أشجار الغرقد في قلوب المسلمين لاستحسان ما هم عليه من باطل وكفر وجاهلية متمثلة في العودة إلى الطاعة والانقياد والخضوع لهذه المذاهب الكافرة، ولطواغيتها الذين يخططون لها ليدحضوا المسلمين في

(١) انظر فقه السيرة النبوية منير الغضبان، ص ٤٩٧.



الجاهلية التي تنقض عرى الإسلام.

هذا وبالرغم من أنني سأعطي فكرة موجزة عن هدف بعض هذه المذاهب، وذلك فيما يتعلق من وجهة النظر الجاهلية والتي سأبيِّن مقصدها، وأردُّ عليه من خلال ما صوَّره القرآن الكريم في عموم الجاهلية، إلا أنني أبادر إلى القول بأن الهدف الأول والأخير من كل هذه المذاهب: هو إخراج المسلم من إسلامه، ثم العودة به إلى الروح الجاهلية المتمثلة بالطاعة والانقياد لهذه المذاهب، والتي سأبيِّنها في المطالب الآتية.

المطلب الأول

الماسونية

الماسونية: هي حركة تنظيمية خفية قام بها اليهود، خاصة في مراحل الضياع السياسي الذي تعرَّض له يهود التوراة، فأخذوا على عاتقهم إقامة تنظيم يهودي يهدف إلى إقامة مملكة صهيون العالمية(١). وقد اختلف المؤرخون في أصلها ونشأتها، فبعضهم يعيدها إلى بناء معبد سليمان عليه السلام، وبعضهم أعادها إلى القرن الأول الميلادي، ولكن المؤرخين متفقون على أنها جمعية سرية إرهابية يهودية تعني عندهم البناء الحر، وتحاول هدم الأديان والقيم الأخلاقية(٢)، وترسيخ التقعيد لفكرتها في الوجود الإنساني(٣).

أما أهدافها وخطرها فإنه يكمن في أن هذه الجمعية لها وجه ظاهر

---

(١) الماسونية ذلك العالم المجهول. صابر عبدالرحمن طعيمة، دار الجيل. ص ١٥.

(٢) انظر أسرار الماسونية، جواد رفعت أتلخان، ترجمة نور الدين الواعظ، وسليمان محمد القابلي، المختار الإسلامي، ص٤ ـ ٥.

(٣) الماسونية والصهيونية والشيوعية غاية وهدفاً. صابر عبدالرحمن طعيمة، دار الفكر العربي، ص١٩. وانظر الموسوعة السياسية، عبدالوهاب الكيال، ط١، ١٩٧٤م، ص٤٧٦.

عليه بريق مزيف غير الوجه الحقيقي لها، فظاهرها ما يراه البعض بأنها عمل تنظيم مقصور على بناء الأبنية وما شاكلها، ولذا يقولون أنها لم تكن تقبل الانضمام فيها إلا الذين يمارسون صناعة البناء[(١)]. ويراها آخرون بأنها جمعية أدبية تعنى بعلوم الأدب وتنوير الأذهان[(٢)]. وهذا ظاهرها الذي يدّعون أن فيه الرحمة، أما باطنها الذي من قبله العذاب، والذي يهدف إلى التدمير والتخريب والمكيدة لإبادة الدين وخدمة مصالح اليهود بإقامة مملكتهم الكبرى[(٣)]. وتتجلى هذه الأهداف من خلال الأقوال والأفعال والتقريرات الصادرة عنهم. من ذلك ما ذكرته نشرة المحل القرشي سنة (١٩٢٣م). والتي جاء فيها: (لا بد لنا أن نكافح بجهد أكبر لإدامة القوانين والنظم اللادينية، لأن السلطة المطلقة التي صنعها رجال الدين على وجه المعمورة قد قاربت النهاية، لا بل آلت إلى الزوال، وأن غايتنا قبل كل شيء هي إبادة الأديان)[(٤)].

وقد صوّر القرآن تلك المزاعم ودحضها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] فاعتقادهم أن نصر الرسل ومن معهم قد قارب على الرحيل اعتقاد باطل، لأن النهاية والمستقبل لهذا الدين.

وكما جاء في بروتوكولاتهم (حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض... لن نتيح قيام أي دين غير ديننا... ولهذا السبب يجب علينا

---

(١) وهذا ما يراه جرجي زيدان. انظر الماسونية والصهيونية والشيوعية غاية وهدفاً. صابر عبدالرحمن، ص ١٦.
(٢) انظر كتاب الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية. شاهين مكاريوس. دار مارون عبود، ط٢، ١٩٨٣م، ص٨.
(٣) انظر مجتمعنا المعاصر أسباب ضعفه ووسائل علاجه عبدالله المشوخي، ص ٢٧٢.
(٤) أسرار الماسونية. جواد أتلخان، ص١٧ ـ ١٨.



أن نحطم كل عقائد الإيمان)[1]. فتراهم ينادون (بالحرية والمساواة والإخاء) لإيهام الناس أنهم يعملون من أجل غرس روح المحبة والسلام والإخاء بين الناس كافة، وهم بهذا يريدون أن يجلبوا أكبر عدد ممكن من الأعضاء إلى صفوفهم، وربما يأتي هذا عن طريق الأندية والجمعيات التي يتمُّ فيها نشر الفساد وتدمير الأخلاق، وتنفيذ مخططات اليهود وبالذات بين صفوف الشباب، لأن من غايات الماسونية التركيز على عنصر الشباب لإفساده أكثر من غيره وهم يقولون: (دعوا الكهول والشيوخ جانباً وتفرغوا للشباب)[2]، فإذا صاحوا في آذانهم وأسمعوهم الكلام المعسول وضعوهم في شباكهم. وهذا الخداع والتضليل قد ورد في خططهم كما قالوا: (إن صيحتنا الحرية والمساواة والإخاء قد جلبت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين)[3] فلا غرابة أن تستغلَّ الماسونية أسماء مؤسسات خيرية واجتماعية ورياضية وثقافية، إلى غير ذلك من الأمور التي ظاهرها خير، وهي في الحقيقة تعمل في الباطن لتخريب المجتمع[4]، لأنها جمعية يسيّرها بالفعل أبناء إسرائيل لأغراض يهودية خالصة يقصد من ورائها تفرقة الشعوب لا جمعها، ويهدف من خلالها حكم العالم والسيطرة عليه برمته، وذلك لاعتقادهم أن العالم كله ملك لهم[5]، وأن هذه السيطرة تبدأ من اللبنة الأولى في المجتمعات ألا وهي الأسرة، فدخلوا إليها، وعرفوا أولى جزئياتها ألا وهي المرأة، فاستغلوا العنصر العاطفي فيها، ولأنها صاحبة التأثير المباشر على الأبناء، وهم

---

(١) الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط٦ ـ ١٩٨٢م ـ ص١٥٢).

(٢) أسرار الماسونية، جواد أتلخان، ص ٣٦.

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون، ص١١١.

(٤) مجتمعنا المعار. عبدالله المشوخي، ص ٢٧٦.

(٥) الماسونية والصهيونية والشيوعية جابر عبدالرحمن طعيمة، ص ١٥٥.

يريدون تربية الأبناء بعيداً عن الدين[1]. ولهذا شجعوا النساء على الرذيلة والاختلاط، وهم يعودون بذلك إلى سجيتهم ألا وهي الإفساد في الأرض فيسعون من أجلها[2]، كما صوَّر القرآن عنهم ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

أما مطامعها في فلسطين فقد سعى اليهود عن طريق المحافل الماسونية إلى احتلال فلسطين والسيطرة عليها، فحين انتظموا في العالم وساروا في تلك المحافل جاؤوا بعد فترة، وطلبوا من السلطان عبدالحميد أن يوطِّنهم في فلسطين مقابل أموال طائلة وعروض مغرية، وقد تكرر طلبهم مراراً وتعددت مغرياتهم وعلى ألسنة أشخاص عديدة منهم، ولكن السلطان عبدالحميد رفض ذلك رفضاً قاطعاً حتى قال لهم: (لا أستطيع أبداً أن أعطي أي جزء منها، ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت البلاد فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان)[3].

ولهذا السبب ولأسباب أخرى دبر اليهود المؤامرات ضد الخلافة، فاستطاعوا عن طريق المحافل الماسونية أن يكون لهم دور كبير في سقوط الخلافة، وقيل: إن اليهود هم أصحاب العقول المحركة وراء ثورة أتاتورك بالتعاون مع عملائهم[4].

ولم يقتصر الأمر على هدم الخلافة العثمانية أو على التحرك في سبيل (الأرض الموعودة)، وإنما امتدت الماسونية بسرطانها إلى بقية الدول،

---

(١) أسرار الماسونية. جواد أتلخان، ص ٣٧.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٦/٢.

(٣) السلطان عبدالحميد حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي (ط١- ١٩٨٧م)، دار الأنبار، ص٢٥١.

(٤) انظر نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، زين نور الدين، دار النهار للنشر - بيروت - (ط٣ - ١٩٧٩م - ص ٢٠٧).



فلعبت ما لعبت وهي تعمل تحت واجهات أخرى مستخدمة شتى الوسائل من أجل الهدم الأخلاقي (فالغاية عندهم تبرر الوسيلة) أياً كانت تلك الوسيلة حتى يحكموا الدول كما تحكم الحكومات رعاياها[1].

وزيادة على ما ذكرت أبيِّن جواهر معتقداتهم التي يبنون عليها ماسونيتهم الضالة من خلال بعض نصوص بروتوكولاتهم.

١ - البروتوكول الأول قالوا فيه: (علينا أن نختار من بين أفراد الشعب رجالاً للإدارة من الأذلاء لم يكتسبوا خبرة في شؤون الحكم، وسيكون من السهل علينا أن نجعلهم كأدوات الشطرنج).

٢ - في البروتوكول الرابع قالوا: (إن المحافل الماسونية تقوم في العالم أجمع بدور القناع الذي يحجب أهدافنا الحقيقية).

٣ - البروتوكول السادس: (سنشرع في تنظيم احتكارات عظمى بحيث نستوعب الثروات).

٤ - البروتوكول السابع: (علينا أن نردَّ على أي دولة تجرؤ على اعتراض طريقنا بدفع الدولة المجاورة لها إلى إعلان الحرب عليها، ولكن إذا قررت الدولة المجاورة بدورها أن تتخذ ضدنا موقفاً فيجب علينا الرد بإشعال حرب عالمية).

٥ - البروتوكول التاسع قالوا فيه: (لقد حطمنا في الواقع جميع السلطات الحاكمة، ولكنها ما زالت قائمة من الوجهة النظرية فقط). وفيه أيضاً: (إن مطامعنا غير محدودة وجشعنا نهم وتعصبنا شديد وحقدنا عنيف، ولذلك نتوق إلى انتقام لا رحمة فيه).

(١) الماسونية والصهيونية والشيوعية غاية وهدفاً، صابر عبدالرحمن طعيمة، ص ١٧٩.

٦ - البروتوكول الثاني عشر قالوا: (ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد، وإذا كانت النتيجة التي وصلنا إليها مؤقتاً، قد أسفرت عن خلق جيل من الملحدين، فإن هدفنا لن يتأثر بذلك، بل يكون ذلك مثلاً للأجيال القادمة التي ستشيع إلى تعاليم موسى. هذا الدين الذي فرض علينا مبدؤه الثابت النابه وضع جميع الأمم تحت أقدامنا)[١]. وهم بهذا يظنون أنهم سينتصرون على أديان السموات، وقد صوَّر القرآن الكريم مزاعمهم تلك مبيناً سقوطها واحدة تلو الأخرى. فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

المطلب الثاني
اللادينية

اللادينية أو الدنيوية:

إن كلمة علماني هي مترجمة لكلمة (Seculay)، والتي معناها اللاديني[٢] (وهي اتجاه في الحياة أو في شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات الدينية استبعاداً تاماً عن شؤون الدولة، فهي تعني مثلاً السياسية اللادينية البحتة للحكومة، وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة

---

(١) انظر ذلك ومزيداً عليه في كتاب الماسونية والصهيونية والشيوعية غاية وهدفاً. صابر عبدالرحمن طعيمة (١٧٩ - ٢٢١)، وانظر كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي.

(٢) انظر الإيديولوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام، أنور الجندي، دار الاعتصام، ص٣١.



والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين)[١]. فهي إذن جملة من القوانين الوضعية التي جاءت وليدة الصراع الطويل والمرير بين السلطتين الدينية والدنيوية في أوربا[٢]. إذن فهي من حيث النشأة ظهرت نتيجة ذلك الصراع بين المؤسسة الدينية المتمثلة بالكنيسة وبين المؤسسة المدنية. هذا الصراع الذي حسم بانتصار الدولة المدنية على السلطة الدينية، وذلك بفصل الدين عن الدولة، ذاك الصراع الذي جاء نتيجة رد فعل عن الأخطار التي ارتكبت من رجال الدين، كاضطهاد الأقليات الطائفية وعجز السلطات الدينية عن مسايرة العلم وحضارة العصر، بوضع جعل بعض المفكرين لم يترددوا في انتقاص الدين عندهم ونعته نعتاً محتقراً، ووصفه بأفيون الشعوب أو أنه جاء لتنظيم الشعوب البدائية[٣]. فاللادينية في جوهرها: إنما تمثل القضاء على نظام قائم في الغرب إبان دعوتها حين كانت الكنيسة هي التي تباشر السلطة السياسية وتفرض نفوذها على الحكومات والدول[٤]، فكانت تمارس نوعاً من السلطة الأبوية القاسية، وذلك بأبشع صور الاضطهاد للناس ولخصومها، ثم تقاطعت إلى حد ما مع المناهج العلمية وحاربتها حربها الشعواء.

وقد نمت اللادينية في أوربا قبيل الثورة الفرنسية في مجال التحرر من سلطان الدين والكنيسة، وإقامة منهج جديد أساسه الدولة الحديثة من شأنه نقل الولاء من الكنيسة إلى الدولة، مستدلين بذلك إلى النظرة المستمدة من أقوال السيد المسيح: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. ليست مملكتي في هذا العالم) والتمسوا مفهوماً يقوم على أساس أن المسيحية إنما جاءت

---

(١) العلمانية: سفر عبدالرحمن الحوالي ـ الدار السلفية للنشر والتوزيع ـ السعودية ط١، ص٢١ وما بعدها. والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ـ ط١، ١٩٨٨م، ص٣٦٧.

(٢) انظر العلمانية والدولة الدينية شبلي العيسمي، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٣م، ص١٨.

(٣) انظر الإيديولوجيات والفلسفات المعاصرة، أنور الجندي، ص٣١ ـ ٣٢.

(٤) انظر الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندي. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص١٤٧.

بوصايا في مجال الأخلاق[1]. وعلى هذا فاللادينية ليست عقيدة إيجابية أو فلسفية تعتمدها الدولة، وتبشر بها وتعلمها وتقف بها في وجه المعتقدات الدينية. أي أن الدولة تكون محايدة تجاه كل الأديان. كما وردت في مناقشات البرلمان الفرنسي للدستور في ٢٧ تشرين أول ١٩٦٤م[2].

حيث أعلنت الكنيسة موافقتها على مبدأ التفريق بين السلطتين الدينية والمدنية واستقلالهما عام (١٨٨٥م)[3]، فأقيمت بذلك أنظمة سياسية جديدة غير خاضعة لسلطة الكنيسة. مما حدا بهذه الأنظمة المدنية أن تنتقم انتقاماً شديداً من الدين، فكان بيد الدولة القدرة على إخضاع الدين وضربه، الأمر الذي غذى اللادينية وزاد في قوتها كونها غزت الفلسفة المادية، فلم تلبث أن فاضت على المذهب اللاديني الذي كانت غايته محاربة الدين وإقصاءه عن مختلف مجالات الحياة العامة، وكذلك إقصاء رجاله والحد من تأثيرهم، بعزله عن التعليم والثقافة والمدارس لا سيما الدينية منها.

مصادرة أملاك الكنيسة وسيطرة اللادينية على الحكم والمدرسة، مستبعدة الدين ومقرراته عن تكوين الفكر السياسي والاجتماعي[4]؛ لأنها تعتقد أن أي مخطط من مخططات الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها لا بد أن يصدر عن عقل الإنسان، المجرد عن رواسبه التي هي نتاج تفاعل مادي مع وقائع مادية، أما بقية النشاطات الناتجة عن العقيدة والتفاعل الروحي، فهي مقصورة على النطاق الفردي الخاص، دون أن تكون لها أية علاقة بالمجتمع ونظامه. إضافة إلى اعتماد العقل اعتماداً كلياً شريطة أن يكون هذا العقل مجرداً عن العاطفة والآراء المسبقة المتعلقة بالأعراف

---

(١) الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندي. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ١٤٧.
(٢) انظر العلمانية والدولة الدينية شبلي العيسمي، ص ٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٨.
(٤) انظر الإيديولوجيات والفلسفات المعاصرة. أنور الجندي، ص ٣٣.



الدينية[1]. وإن المتتبع لمنهج اللادينية، باستطاعته أن ينظر إلى انحرافاتها من خلال معرفة بعض سماتها الآتية:

١ - وضع الحواجز بين الروح والمادة.

٢ - النظرة إلى القيم الروحية نظرة سلبية، بغضِّ النظر عن تلك التي تعدُّ قاسماً مشتركاً للمجتمع الذي تسوده، والتي يجب أن تحافظ على إيجابياتها بسبب من طابعها الجماعي، كالتكافل الاجتماعي والتعاون والتضحية والإيثار... وغيرها، كما أنها بإغفالها لهذا تفتح المجال لحدوث تصادم بين هذه القيم - ذات الطابع الجماعي - وبين القيم المادية المفروضة من الخارج.

٣ - مناداتها بفصل الدين عن السياسة لكي يتحرر - كما يقولون - دعاتها من ظروف السياسة وملابساتها (ولكي يسمح له بالانطلاق في مجاله الحيوي)، وهنا وقع التناقض الصريح باعترافها أيضاً بوضوح، بأن السياسة أداة لا أخلاقية، ولا بد أن تمارس الانحراف عن القيم الخلقية المتعارفة لأسباب تقتضيها ظروفها وملابساتها، وما دامت هكذا فمن الخطأ إذن إنزال الدين من سماواته العليا إلى دركاتها؛ لأنها ترى أن السياسة لا تتورع عن استخدام أي أسلوب دنيء يمكِّنها من الوصول إلى أهدافها بأسرع وقت مستطاع[2].

٤ - حاولت اللادينية أن تحقق سماتها وأهدافها من خلال احتواء التربية والتعليم، للسيطرة على إخراج أجيال لا تعرف الدين أو الأخلاق، فأبعدت الثقافة الدينية عن المدارس العامة في أوربا[3]. أما نجاحها فإنها لم تنجح - النجاح الحق - في تحقيق

(١) انظر تهافت العلمانية. الدكتور عماد الدين خليل. مؤسسة الرسالة ١٩٧٥م، ص٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص٥٧ - ٥٩.

(٣) انظر الإيديولوجيات والفلسفات المعاصرة. أنور الجندي، ص٣٤ - ٣٥.

غاياتها وهي إقامة دولة ومجتمع ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي، حيث لم تتمكن اللادينية من حصر الدين في الفرد فقط، ولم تتمكن كذلك من جعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد واحد، يشعرون أنهم إخوة في الوطن، بصرف النظر عن كونهم غير إخوة في الدين، فقد قامت الدولة اللادينية لكنها في الواقع لم تقم إلا بشكل صوري[1]. بل إن الدول التي تمركزت فيها اللادينية لم تتخلَّ عن دينها كلياً، وإن الدين لا يزال له نفوذه، وإن رجال الدين في أوربا أدركوا أن عليهم أن يلبسوا الدين وتقاليده ثوباً عصرياً، ومع هذا بقاء الشعور الديني حتى في البلاد التي تدين بالإلحاد رسمياً، وهنا من الممكن القول بفشل اللادينية فشلاً جزئياً في تلك البلاد[2].

أما في البلاد الإسلامية، فلا يمكن تحقيق اللادينية كما يريدها أهلها، وإن قياس المجتمع الأوربي على المجتمع الإسلامي قياس مع الفارق، وقياس الديانات السابقة على الدين الإسلامي قياس مع الفارق أيضاً. علماً أن اللادينية وإن كانت منهجاً جاهلياً قد تربى جزء منه في أحضان الماسونية، إلا أن هناك من تبناها. كان الهدف منها هو الخلاص من التناقضات الاجتماعية في البلد المعين، كأن يكون ذلك البلد أو المجتمع غير متجانس لا دينياً ولا قومياً ولا طائفياً، فتصور البعض أن اللادينية هي المخرج من هذه التناقضات، حتى لا تحسب الدولة أو السلطة المدنية على جهة أو طائفة أو مذهب. وهذا التصور أيضاً تصور جاهلي ناتج عن قصور في فهم الإسلام وحقائقه. وإن القياس للادينية بين المجتمع الأوربي والمجتمعات الإسلامية يختلف تمام الاختلاف للأسباب الآتية:

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٤.

(٢) انظر الإسلام والدعوات الهدامة. أنور الجندي، ص١٥٢.



أولاً: إن فشل الكنيسة لا يعني فشل الإسلام. فالكنيسة لم تتمثل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والمجتمع. أما الدين الإسلامي فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق، فقد جاء بنظام شامل يهذب حياة الإنسان في شتى نواحي الحياة. فهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية، فالفصل هنا معناه التنصل من التشريع الحق[1]. والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ويقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثانياً: لا توجد في الإسلام مؤسسة كالكنيسة الغربية، وإن الإسلام بمنهجه الشمولي ومسايرته لكل زمان ومكان، فإنه في منابعه يرفض أي نوع من أنواع السلطة الأبوية، لأنه يأبى مفهوم العصمة ويرفضه، إذ بات من المقررات الشرعية التي استقر عليها العمل منذ الصدر الأول أن كل شخص يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ـ وهو رسول الله ﷺ ـ الذي قال الله في حقه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق أياً كان هذا المخلوق، فلا وجود للطاعة العمياء ولا لصكوك الغفران. ولكن الطاعة للغير مرتبطة تمام الارتباط بطاعة الله الخالق. وإن ما يلاحظ في الآونة الأخيرة من بروز تطلعات دنيوية لدى بعض قيادات الدين لتأسيس نمط من المرجعية تشبه إلى حد ما (سلطة الكهنوت) كالعصمة وولاية الفقيه، فهو أمر يحتاج إلى إقرار من الإسلام وإلى دراسة عميقة[2].

---

(١) انظر الإسلام والدعوات الهدامة. أنور الجندي، ص ١٥٣.

(٢) راجع في هذا كتاب تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، للشيخ أحمد الكاتب، ط١، في ثلاثة أجزاء، لندن ١٩٩٧م.

ثالثاً: لا صدام بين الدين الإسلامي والعلم، كما حصل في الكنيسة. بل على العكس من ذلك، فقد شجع الإسلام العلم وحثَّ عليه وجعل منزلة العلم والعلماء منزلة مرموقة في المجتمع حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ثم نادى العقل والفكر بالتدبر في كثير من الآيات القرآنية. فلم يمنع من قيام العلم ومن تقدمه في كل ميادين الحياة، فلا تعارض بين هذا أو ذاك. بل لقد قام العلم الإسلامي كله والذي تولدت عنه كل النهضة العلمية الحديثة في أوربا، ولا سيما المنهج التجريبي الذي تقوم عليه كل العلوم الحديثة. قام هذا العلم في ظلال العقيدة الإسلامية بلا تعارض في ثبوت سنة الله في الكون، والتي يترتب عليها إمكان قيام البحث العلمي وتتبع نتائج المشاهدات، لأن هذه حقيقة، وحتى لا يتعارض بعضه مع بعض إلا عند العقول الضيقة التي تعجز عن الشمول فتجهله[1].

أما دين الكنيسة الذي بدأ يترنح تحت ضربات اللادينية فهو ليس دين الإسلام، بل هو الصورة الشوهاء والنصوص المحرفة والخرافة المسطورة التي عرضت في محلات المعابد عند أرباب المسيحية الأوربية[2]. فانتصار العلم يعني انتصار الدين الحق، وإذا ما انتصر العلم على مجتمعات جاهلية، فهذا يعني فشل تلك المجتمعات لأنها لم تلتزم الدين الحق فخسرت العلم والدين. والإسلام يوحِّد بين الدين والعلم ولا تعارض بينهما، فالدين في الإسلام علم لأنه يقوم على النظر والتفكير والاعتماد على البرهان، والعلم في الإسلام دين لأن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة[3]، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. ويقول أيضاً: ﴿أَوَلَمْ

(١) جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، ص٧٥ ـ ٧٦.
(٢) انظر كتاب المنهزمون، يوسف العظم، ص١٨٦.
(٣) انظر بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين. الدكتور يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، ص٢١.



يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ويقول كذلك: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦]، وهكذا كثير من الآيات القرآنية التي تحثُّ على العلم.

رابعاً: إن الأخلاق المتفشية في المجتمعات الأوربية هي غيرها في المجتمعات الإسلامية، فقد هجر الناس الكنيسة في الغرب لما يلاقونه من ازدواجية وتضارب بين العقيدة المسيحية والسلوك الكنيسي، فأعلنوا تخلّيهم عملياً عن الكنيسة وعن كل ما يدور في فلكها[1]، فغرق الناس في سفاسف الأخلاق، وفي حمأة الجنس بتأثير المبادىء الهدامة، فنسوا أو تناسوا أنهم ينحرفون عن الأخلاق التي كان مصدرها غالباً من المسلمين أيام احتكاك العالم الصليبي بالعالم الإسلامي في الحروب الصليبية، ودخولهم إلى بلاد الإسلام وإقامتهم فيها فترات من الزمن بوضع دويلات مؤقتة كما فعلوا في بعض بلاد الشام.

فامتزج الصليبيون بالحياة الإسلامية وأفادوا منها وتأثروا فيها مع المحافظة على الأخلاق، ومع هذا كله ومن حصيلة العلم الذي أخذوه عن المسلمين في المغرب والأندلس. فضلاً عما عندهم من الأخلاق التي يدعو لها السيد المسيح والتزامهم ببعضها. كل ذلك قد انحرفوا عنه وتحولوا، فعشعشت فيهم اللادينية وباضت عندهم فانفصلت الأخلاق عن مجتمعاتهم، كما انفصلت السياسة عن الدين[2].

أما المجتمعات الإسلامية فلا تزال الأخلاق فيها قائمة، وانفصال الأخلاق عن الدين أمر مستبعد. ومن هنا فلم توجد حاجة لأن يعتنق الفكر الإسلامي أو المجتمعات الإسلامية مبدأ اللادينية، إذ إن العوامل التي كانت سبباً لنشوئها في أوربا، لم توجد في المجتمع المسلم ولا في الفكر الإسلامي[3]. وإن المنهج

(١) المنهزمون. يوسف العظم، ص١٨٦.

(٢) انظر جاهلية القرن العشرين. محمد قطب، ص ١٥١ ـ ١٥٨.

(٣) الإيديولوجيات والفلسفات. أنور الجندي، ص ٣٥.

الأوربي يختلف اختلافاً واضحاً عن المنهج الإسلامي الجامع المتكامل، الذي يصنع الحياة كلها في إطار موحد، ولا يقرُّ بالفصل بين القيم والمفاهيم، بل يراها متلاقية متكاملة يؤثر كل منها في الآخر(١). وقد بيَّن القرآن الكريم على لسان الأنبياء عليهم السلام أن مخالفتهم للأمر وجريانه على الناس دونهم ثلمة تورد الاعتراض كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

ثم رفض القرآن الكريم كل فصل بين الدين والمجتمع، سواء كان في الحكم أو العلم أو الأخلاق. فقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]. وفي العلم قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. وفي الأخلاق قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

خامساً: لم تكن الكنيسة مستندة على الوحي الإلهي، بينما يعتمد الإسلام على الوحي، وليس على تفسيرات العلماء واجتهاداتهم، لا سيما في الجوانب القطعية الملزمة الثابتة بالوحي الإلهي. أما الاجتهاد المتحرك في الحياة ضمن إطار ضوابط الفهم الأصولي الإسلامي في حدود مصالح الأمة وفي حركتها الحضارية الصاعدة فهو أمر محمود، وهو غير ملزم لزمان أو مكان بل يمكن أن يعاد النظر فيه في كل عصر من العصور ضمن تلك الضوابط(٢).

(١) الإسلام والدعوات الهدامة. أنور الجندي، ص١٥١.
(٢) انظر الإسلام والتنمية الاجتماعية للدكتور محسن عبدالحميد مكتبة القدس، بغداد ١٩٨٦م، ص٦١ وما بعدها.

سادساً: (لم يكن موقف الكنيسة مع أهل الأديان الأخرى والمذاهب النصرانية المخالفة لها موقفاً ودياً، بل كان موقفاً يتميز بالعنف والاضطهاد وسفك الدماء كما في محاكم التفتيش)[1].

بينما الإسلام حل تلك المسألة حلاً جذرياً، عندما صوَّر القرآن ذلك بقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]، فحقوق الناس والأديان كلها ثابتة في الإسلام، بل كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مبادىء التسامح عندهم[2].

فماذا جنت الشعوب من اللادينية؟! إنها الحضارة الموهومة التي أودت بعاشقيها في متاهات الظلام، ثم ساقتهم إلى جرف هار فانهار بهم في نار جهنم.

المطلب الثالث

الشيوعية

وهي الفكرة ذات الطباع والسلوكيات التي لا يتقبَّلها الإنسان السوي، ولا تستقيم مع الفكرة الإنسانية[3]، أعدت كوادرها الماسونية من المثقفين وأرباب الأموال. والشيوعية لا مكان عندها لفكرة الخالق، ويفسرون الدين تفسيراً مادياً صرفاً، ويرونه تابعاً للمؤثرات الاقتصادية

---

(١) صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي للدكتور محسن عبدالحميد، ط١، ١٩٩٨م، ص٣١.

(٢) صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي، د.محسن عبدالحميد، ص ٣٢.

(٣) الماسونية والصهيونية والشيوعية، صابر طعيمة، ص ٢٧٥.

والمادية لا غير[١].

نشأت هذه الفكرة وأخذت تترعرع في أواسط القرن الماضي وتحت مسمّيات عدة، منها: الماركسية والمادية التاريخية وغيرها، وقد أخرجت الشيوعية الفلسفة المادية من إطار الميدان النظري واستعملتها سلاحاً فتاكاً ضد عقائد الدين[٢]. يرون أن المادة نفسها هي المتصرفة بهذا الكون، وأن التاريخ وحوادثه قد صنعته أدوات الإنتاج، ثم ينتج عن هذا نظام للحياة هو نظام المجتمع الاشتراكي المادي، فالاقتصاد والمجتمع والعقيدة كلٌّ واحدٌ لا يتجزأ متلائم عندهم مع بعضه، بل كل جزء من هذه الأجزاء لا يمكن أن ينبت إلا في الجو الذي يساعد على إنبات الأجزاء الأخرى[٣]. حتى بات من مسلّمات الفكر الشيوعي أن فكرة الديمقراطية والحرية، وما يستتبعه من تحقيق للعدالة كل هذه مفاهيم مرتبطة بالنظام الطبقي من وجهة نظرهم، وهذا النظام مرتبط بالسيطرة الاقتصادية، وبمجرد امتلاك المجتمع لوسائل الإنتاج، فإن النظام الطبقي سيسقط ويتبع هذا بالضرورة انتهاء الدولة باعتبارها بناءً فوق المجتمع[٤].

والحقيقة أن (ماركس) كان مادياً متعصباً حاول أن يطبق المادية على فلسفة التاريخ والعلوم الاجتماعية وعلى الاقتصاد، مشيراً إلى أنها التفسير الوحيد لحل مشاكل المجتمعات، ولم يكتف فقط بالهجوم على الأديان، بل شرع هذه النظرية كسلاح ضد الأنظمة الأخرى، ثم استخدموا الوسائل المبنية على الحقد والإرهاب، وذلك باستخدام واستغلال الطبقة العاملة

---

(١) موقف الدين من العلم. الدكتور فؤاد باشكيل. ترجمة أورخان محمد علي، ط٣، ١٩٨٨م، دار الأنبار، ص٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٣) الإسلام في معترك الصراع الفكري الحديث، محمد فرج، ط١، ١٩٦٢م، ص٣٤.

(٤) الوظيفة الاقتصادية للدولة في التشريع الإسلامي، عبداللطيف هميم، رسالة دكتوراه من كلية الشريعة بغداد، على الآلة الطابعة، ص١٦.



وإغرائها بالآمال وشحن القلوب والكراهية وحب الانتقام، ثم القيام باستغلال ثروات الشعوب الإصلاحية وسرقتها لصالح الشيوعية أو خلق حالة من الفوضى والسعي لتفسخ الأجهزة الإدارية، وزرع الشكوك بشكل فوضوي جارف تمهيداً لفرض اشتراكيتهم بلا معارضة فعلية، واستغلال للمصطلحات السياسية كالحرية والمساواة والسلام العالمي والحقوق... إلخ، وتبني مبدأ «الإنسانية» والتبجح باسمها للتغرير بالآخرين[1].

والشيوعية لا تحمل قيمة ولا تصلح كسلاح إلا للشغب، وهكذا كان تطبيقها في عالم الواقع إذ أنها كانت سبباً لمعظم أحداث الشغب في مختلف البلاد، وما يقارب القرن من الزمان، ولكنها لا تحمل ولا تشتمل على وجهة نظر علمية يعتدُّ بها[2]. هذا وإن عداء الشيوعية للإسلام عداء شرس وعنيف لأسباب كثيرة، منها أن الفلسفة المادية التي يقوم عليها الفكر الشيوعي لا تجد أمامها ديناً يحتوي على نظام اجتماعي وأخلاق - ذا رصيد عظيم وتجربة طويلة - سوى الإسلام، فضلاً عما فيه من مقومات الإيمان بحيث يدفع الشعوب إلى الانتماء إليه.

والشيوعية جاءت لهدم هذا كله. إذن فلا يمكن الجمع بينهما، إذ لا مكان ولا بقاء للشيوعية في بلد يدين بالإسلام، ولا بقاء للإسلام في بلد يؤمن بالشيوعية، فهما كالتنوين والإضافة في اللغة لا يجتمعان؛ لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور علاقة نظيفة تقوم بين الشيوعية والإسلام؛ لأن الشيوعية تقوم على هدم المجتمعات التي لا تؤمن بها فتسعى في زوالها[3]، وذلك بشتى الطرق والوسائل المادية والمعنوية، فهم يقومون بدراسة التهديم بين الحين والآخر، وقد وضعت الشيوعية وثائق عنت بها هدم الإسلام في نفوس المسلمين وفي ديارهم، حتى كتبت وثيقة من

---

(١) انظر الإسلام في معترك الصراع الفكري الحديث، محمد فرج، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) موقف الدين من العلم. الدكتور علي فؤاد باشكيل، ص ٥٠ - ٥١.

(٣) انظر الماسونية والصهيونية والشيوعية. صابر عبدالرحم طعيمة، ص ٢٧٨.

أخطر الوثائق الشيوعية بيّنت فيها البنود الخاصة بكيفية مهاجمة الدين الإسلامي والقضاء عليه.

تقول الوثيقة: برغم مرور خمسين سنة تقريباً على الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، وبرغم الوثيقة التي وجهتها أضخم قوة اشتراكية في العالم إلى الإسلام ـ وهذا المقال قبل انهيار الشيوعية ـ وبرغم القوى اليقظة التي تحارب الدين فإن الإسلام ما يزال يرسل إشعاعاً، وما يزال يتفجر قوة، بدليل أن ملايين من الجيل الجديد يعتنقون الإسلام ويجاهرون بتعاليمه، مع أن الإسلام أخطر الأديان الرجعية، وهو دين جامد حقود على الحضارة والتقدم ـ من وجهة نظرهم ـ وهو خصم عنيد، ولذلك قررنا:

١ ـ مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه، والمهادنة لأجل أن نضمن السيطرة ونجتذب الشعوب العربية.

٢ ـ تشويه سمعة علماء الدين والحكام المتدينين واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية.

٣ ـ تعميم دراسة ـ الشيوعية ـ في جميع مراحل التعليم.

٤ ـ الحيلولة دون قيام حركات دينية مهما كان شأنها ضعيفاً.. وتنفير الناس بالأسلوب الذي لا ينمُّ عن معاداة للإسلام.

٥ ـ تشجيع الكتّاب الملحدين وإعطاؤهم الحرية في مهاجمة الدين.. والتركيز في الأذهان أن الإسلام انتهى عصره، ولم يبق منه اليوم إلا العبادات الشكلية.

٦ ـ قطع الروابط الدينية بين الشعوب.

٧ ـ ... هدم الضمير الديني... بالقصص والمسرحيات والصحف التي تروِّج للإلحاد وتهزأ بالدين ورجاله.

٨ ـ خداع الجماهير بالنيل من الأنبياء وجعلهم بشراً عاديين.. حتى



يسهل القضاء على الهالة التي أوجدوها لأنفسهم!

٩ ـ التفسير القصصي في القرآن أو التوراة والأناجيل تفسيراً مادياً.

١٠ ـ عدم إتاحة الفرصة أمام الجماهير للتفكير، وإشغالهم بالأناشيد الحماسية والأغاني، والوعود المستمرة برفع الإنتاج ومستوى المعيشة، وإلقاء مسؤولية التأخر والانهيار الاقتصادي والجوع والفقر على الرجعية والاستعمار ورجال الدين.

١١ ـ الهتاف دوماً بثورة لإنقاذ الشعوب، وأن الشيوعية هي الجنة الموعود بها.

١٢ ـ نشر الأفكار الإلحادية التي تزعزع العقيدة الإسلامية.

١٣ ـ لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين، ولا بأس من أداء الزعماء الشيوعيين بعض الفرائض الدينية الجماعية للتضليل والخداع.

١٤ ـ الإعلان بأن الشيوعيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف. وإلصاق كل عيوب وخطايا رجال الدين، بالدين نفسه.

١٥ ـ الاهتمام بالإسلام مقصود منه:

أولاً: استخدام الإسلام في تحطيم الإسلام.

وثانياً: استخدام الإسلام للدخول في شعوب العالم الإسلامي[1].

هذه بعض بنود الوثيقة المعلنة، والخلاصة أن الأمم المتقدمة تخرج الآن من تجربتها مع الفكر الشيوعي، حتى انهارت الشيوعية في مواطن تأسيسها. أما في بعض دويلات العالم الثالث حيث يضعف الوعي، ويقوم

---

(١) مجلة كلمة الحق/ أبريل ١٩٦٧م نقلاً عن كتاب أبو زهرة وقضايا العصر، أبو بكر عبدالرزاق، دار الاعتصام، ص١٣٨ ـ ١٤٠.

منظمون متمرسون ببث أفكار يتلقاها الناس ليكونوا أبواقاً لنظرية قد سقطت من علوِّها يخطفها الطير، أو تهوي بها الريح في مكان سحيق. وقد صوَّر القرآن الكريم مزاعم هؤلاء الملحدين فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وسأبيِّن ما قرَّره القرآن الكريم وصوَّره أيضاً، رداً على تلك المقررات الواردة في الوثيقة قبل صدورها بعدة قرون.

١ - في مهادنتهم للإسلام، قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٩] أي ودُّوا لو تلاينهم فيلاينوك[1].

٢ - في تشويه سمعة الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨]. أي ينقل أو يحكي عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقيص[2].

٣ - في تعميم دائرة منهجهم. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف: ٨] وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، كلما مرَّ عام وإلى آخر الزمان طالما أنه ليس هناك رسول جديد ولا رسالة جديدة، وإن كان الأمر ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ موجهاً إلى رسول الله ﷺ[3].

٤ - أما قيامهم في الحيلولة دون قيام الحركات الدينية فكما قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]. فهدى الله هو الحق وما عداه ليس بهدى، فلا فكاك عن هدى الله ولا محاولة فيه ولا مساومة

(١) الأساس في التفسير سعيد حوى ٦٠٥٣/١٠.

(٢) انظر الأساس في التفسير سعيد حوى.

(٣) في ظلال القرآن ٩٠٢/٢.



في شيء منه قليل أو كثير[1].

٥ ـ وأما ديمومة الإسلام فقد أجاب القرآن الكريم عنها بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

٦ ـ أما زعمهم في قطعهم لروابط الشعوب فقد حذر تعالى منها بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٧ ـ وفي عملهم لعدم الضمير الديني، فقد حذَّر الله الأمة منه. فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

٨ ـ أما تكذيبهم للأنبياء فقد قالوا ما بيّنه القرآن بقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]. فهم سائرون ما سار عليه أولئك الأوّلون.

٩ ـ وتفسيرهم لقصص الأنبياء مادياً فقد أجاب القرآن عن تكذيبهم هذا قائلاً: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ﴾ [هود: ٤٩].

١٠ ـ فقد أمر الله الناس بالعمل وعدم القعود فقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾ [التوبة: ١٠٥]. ثم ذمَّ الذين يتبجحون بالقول دون العمل فقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٨٨] يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا[2]، وقد جاء في الصحيحين: «**المتشبع بما لم يعط**

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٧٣.

كلابس ثوبي زور»[1].

١١ - إن الجنة ليست الشيوعية الموعود بها بدليل قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣] فأين تقوى الشيوعية.

١٢ - محاربة الله ورسوله في زعزعة العقيدة شعار اتخذه الشيوعيون، والله تعالى قال عنهم وعن أمثالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٢٠].

١٣ - النفاق مرفوض برمته والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

١٤ - خطايا الناس على أنفسهم وليست على الدين، والله تعالى يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣]. وبيّن أن الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة لا غير فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. إذن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، والإسراء: ١٥، وفاطر: ١٨].

١٥ - أما استخدامهم للإسلام فقد طمأن الله رسوله بأنهم لن يجنوا سوى ثمار الخيبة والذل فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦٢].

وهكذا في كثير من الآيات القرآنية التي تبيّن مرامي الأقوام الضالة.

---

(١) صحيح البخاري النكاح، ص ٤٨١٨.



المطلب الرابع

التبشير والاستشراق

التبشير: يعني الخبر الذي يفيد السرور[1]، وهو يحثُّ الناس ويدعوهم إلى المسيحية وتعميدهم باسم الآب والابن وروح القدس، وذلك باعتمادهم على الوصية الشيوعية كما تزعم الأناجيل حيث تقول: (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها)[2]، ومن هنا فقد قامت الديانة المسيحية بالتبشير والوعظ والإرشاد.

واهتمت الكنيسة بتوجيه جهودها إلى التبشير في العالم الإسلامي، وذلك بهدف اقتلاع جذور الإسلام من نفوس المسلمين؛ لأن أوربا النصرانية شعرت أن اتحاد المسلمين والتقاءهم حول راية الإسلام يشكل خطراً جسيماً عليهم، كما يحول دون تحقيق أطماعهم الاقتصادية والاستعمارية والعسكرية والسياسية، وبالتالي يحول دون سيطرتهم على المسلمين وبسط نفوذهم عليهم[3]. فهم يرون أن الإسلام هو الجدار الصلب الذي يقف بوجه المسيحية، وأنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي[4].

والتبشير دعوة ماكرة لها ظاهر وباطن، فظاهرها يدعو إلى سلوك التدين الذي هم يفتقدونه، ولا يسلكونه ولا يعلِّمونه أبناءهم في بلادهم، بل تركوهم يمشون بالانحلال والتفسخ الخلقي دون الاهتمام بهم. وباطن ذلك يهدف إلى تفكيك أواصر المجتمع الإسلامي، حتى يتسنى للغرب النصراني

---

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/، ١٩٦٧م، ص٥٣، والمعجم الوسيط، الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، دار الفكر ٥٨/١.

(٢) الكتاب المقدس، مرقس صح ١٦، الفقرة، ص ١١٥.

(٣) انظر مجتمعنا المعاصر، الدكتور عبدالله سليمان المشوخي، ص ٢٩١.

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية. الدكتور مصطفى خالدي، والدكتور عمر فروخ. المكتبة العصرية، بيروت، ط٤، ١٩٧٠م، ص١٨٤.

أن يحكم الشعوب الإسلامية ويستغلّ مواردها الاقتصادية، فتراهم يهدفون إلى اقتلاع جذور الإسلام من نفوس أبنائه، وذلك بالتشكيك بكتاب الله تعالى، وبنبوة سيدنا محمد ﷺ، ومن ثم أخذه للقرآن من التوراة والإنجيل، وهم بهذا يرمون إلى إخراج المسلم من الإسلام، وقطع صلته بالله، وإلى إعداد جيل همُّه الشهوات، واتباع الهوى، يركن إلى الراحة والكسل، وبالتالي فلا يهمه ما يحصل له أو لدينه أو لبلده من مصائب ونكبات.

ولعل مما يدل على الهدف الحقيقي من التبشير في بلاد المسلمين ما قاله رئيس جمعيات التبشير القس (صموئيل زويمر) في مؤتمر القدس للمبشرين والذي عقد سنة (١٩٣٥م) حيث قال: (إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية - فإن في هذا هداية لهم وتكريماً - وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام. وهذا ما أحثكم عليه، وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً من أجله كل التهنئة. لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة، أو التي تخضع للنفوذ المسيحي، أو التي يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيات والمدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية وفي مراكز كثيرة... إنكم أعددتم نشئاً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، بالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار لا يهتم بالعظام ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات[(١)].

---

(١) جذور البلاء عبدالله التل، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٧٨م، ص٢٧٥ - ٢٧٦.



من أجل هذا كله بدأت خطط التبشير ذات مراحل وحلقات يشرف عليها أهل الخبرة بالتنسيق مع المستشرقين، لتعمل داخل البلاد العربية والإسلامية لإعادة أفكار في القرن السابع الهجري، ثم أخذ يزداد نشاطاً في القرن الرابع عشر الهجري، ولا سيما بعد سقوط الخلافة العثمانية وإلى يومنا هذا[1]، والهدف الرئيس للاستشراق هو التبشير وتشويه الإسلام، وهذا ما صرَّح به أحد سادات المستشرقين حيث قال: (إن الهدف الرئيسي من جهود المستشرقين في بدايات الاستشراق... هو التبشير[2]، إضافة إلى وجود غايات وأهداف أخرى للاستشراق. والتي منها معرفة بلاد المسلمين وعقيدتهم وعاداتهم ليعينهم هذا إلى معرفة مواطن الضعف والقوة ليسهل استعمار تلك البلدان. ومنها التأكيد على استغلال ثروات وموارد الأمة الإسلامية إضافة إلى ترويج بضائعهم في بلاد الإسلام. وقد يكون أيضاً سياسياً لبث الأفكار والاتجاهات السياسية التي تبغاها الدولة المبشرة. ومنها الدافع العلمي وحب الاطلاع عند بعض المستشرقين لمعرفة حضارات الأمم ومنها الأمة الإسلامية وليس بدافع الحقد والنيل. وهذا نادر جداً بين المستشرقين وهو الذي يروج له التبشير ليختفي خلف ستاره مدعياً حب الاستطلاع، وهم يدركون أن وراء هذه الدراسات تعرفاً إلى نفسية هذه الأمة ليتم التعامل معها لكشف تطلعاتها، لكي يحكموا الضربة فيها ويحيطوا بوسائل الإخضاع والسيطرة[3]، لأنهم أيقنوا أنه لا سبيل إلى التغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية، وإنما السبيل هو تحويل التفكير الإسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري، وذلك بدراسة حضارة الإسلام والتشكيك فيها وهو السلاح الذي يغزون به الفكر

---

(١) انظر الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم. الدكتور مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٣ ـ ١٤.

(٢) القائل هو (رودي بارت) انظر المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد الصغير، ص١٥.

(٣) انظر الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندي، ص ٢٥٢.

الإسلامي، ولذلك تراهم يحاولون التشكيك بالإسلام من خلال التشكيك بكتاب الله، أو بصحة رسالة النبي الكريم ﷺ، أو بأصول الإسلام وحضارته[1].

ثم تراهم يسلّطون الضوء على الجوانب الضعيفة والروايات الدخيلة والإسرائيليات الواردة في الكتب الإسلامية والنصوص المحتملة متناولين التركيز على الخلاف في المسائل الفقهية الفرعية واعتباره خلافاً جوهرياً في الشريعة، وكذلك إلى وحدة الوجود في التصوف، والعامية عند دراسة اللغة وغيرها. وهم بهذا قد أوقفوا كتّاب العرب والمسلمين موقف الدفاع ورد السهام، لأنهم عمدوا إلى وضع الإسلام والعرب في قفص الاتهام[2]، لينتهي الأمر إلى خلق جيل من الأمة يتنكر للمبادىء، ولا يعرف عن الإسلام سوى هذه الاتهامات والشبهات.

وقد قام الدكتور مصطفى السباعي - عليه رحمة الله - بزيارة بعض جامعات أوربا سنة ١٩٥٦م، ومن خلال اختلاطه ببعض المستشرقين خرج بالنتائج الآتية:

- أن المستشرقين لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً، ولم يشذّ عن ذلك إلا أفراد من الذين طلبوا معرفة الحق بنية اتباعه.
- أن الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب.
- أن الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا ما تزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية من كونه أداة هدم للإسلام

(١) انظر مجتمعنا المعاصر، الدكتور عبدالله، ص ٣٠١ - ٣٠٥.

(٢) انظر الإسلام والدعوات الهدامة. أنور الجندي، ص ٢٥٢.



وتشويه سمعة الإسلام[1]، وأن أي نظرة ولو سطحية إلى الاستشراق ينكشف بوضوح تركيزه على الأفكار الدخيلة، فحاول أن يضم ذلك إلى تراث الإسلام الصافي فضلاً عن شبهاته في ذلك.

وأخيراً.. لا بد أن يرفع المسلم خزي الجهالة بمصادر الإسلام، وأن لا يتكل في فهمه على الغرباء[2]، فكيف إذا كانوا حاقدين وهم الذين صوَّرهم القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١]. ثم بيَّن الله خبث مقاصدهم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

المطلب الخامس

النظام العالمي الجديد

وهو المسمى العولمة، أو النظام الدولي الجديد، وهو جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة، والعولمة هي ترجمة لكلمة (Globalization)، والتي تعطي معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل. وهذه الكلمة ظهرت أولاً في الولايات المتحدة الأمريكية. ومن هنا نستطيع أن نستنتج بأن الأمر

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. الدكتور مصطفى السباعي، ص١٦ ـ ١٧. ومجتمعنا المعاصر. الدكتور عبدالله المشوخي، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٢) انظر موقف المستشرقين من القرآن الكريم للأستاذ أحمد نصيف الجنابي، مقال منشور في مجلة الرسالة الإسلامية العددان (١٩ ـ ٢٠) لشهر كانون الأول، ١٩٦٩م. وكانون الثاني ١٩٧٠م، ص٧٩.

يتعلق بالدعوة إلى توسيع النموذج الأمريكي ليشمل العالم كله[1].

وقيل: إن نظام العولمة الجديد هو حالة جديدة تمثل بداية مرحلة تأريخية انطلقت منذ بداية التسعينات، من خلال الإخفاق التام المزدوج لطموحات أنظمة بلدان الشرق (الاشتراكية)، وأنظمة بلدان الجنوب (النامية أو الاستقلالية الوطنية) مختتمة عهد الحياد الإيجابي، متولداً عن ذلك عهد جديد لتوحيد العالم من خلال مفاهيم ومضامين وأفكار، وإنسان جديد على حساب انتهاء مضامين ومصطلحات أخرى[2]. فالنظام العالمي يحسبه البعض ظاهره يتعلق بسياسات التجارة والحالة الاقتصادية بين البلدان، كما جاء في تقرير الأمم المتحدة للتجارة والتنمية بأنه (ظاهرة متعددة الوجوه يشمل أبرز مظاهرها النمو السريع في التجارة الدولية)[3]. لكنه في الحقيقة ليس سوى الوجه الآخر للهيمنة على العالم تحت زعامة الولايات المتحدة[4].

إذ تشير الشواهد التاريخية إلى أنه مثلما تحكم الأقوياء في الماضي فسادت جاهليتهم ومفاهيمهم، يتحكم اليوم الأقوياء بسيادة هذه القيم والأفكار السائدة عندهم، وفرضها على من دونهم في القوة من الشعوب والأمم للسيطرة عليها ولتسخيرها لمصالحهم، وللحصول على ثروات تلك الأمم المستضعفة، وبما أن الولايات المتحدة تتمتع اليوم بأدوات ووسائل القوة فإنها تحاول أن تسخِّر العولمة لمصالحها، سواء عن طريقها المباشر أو عن طريق ما يسمى بالأمم المتحدة، وهم بذلك يجعلون العالمية

---

(١) انظر قضايا في الفكر المعاصر، الدكتور محمد عبد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩١٧م، ص١٣٦.

(٢) انظر العولمة وانعكاساتها على الدول العربية، الدكتور عبداللطيف هميم بحث مطبوع بآلة الكومبيوتر، ص٤.

(٣) مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الانكتاد) تقرير عام ١٩٦٦، جنيف، ص٩٣.

(٤) صدام الحضارات كقوله إيديولوجية لعصر العولمة الأمريكية، مسعود ظاهر الاتحاد، ٢١/٤/١٩٩٧، ص٢٣.



والإنسانية كما يقولون هي المذهب الجديد يعيش فيه الناس بأمن وسلام بصرف النظر عن الأديان والأوطان كما يقول معروف الدواليبي: (إننا نشاهد منذ المنتصف الثاني لعصرنا الحاضر من القرن العشرين تطلعاً كبيراً نحو إقامة الحياة البشرية على مفاهيم وقواعد إنسانية، ورغبة أكيدة من قبل رجال الفكر والعلم وقادة السياسة للانتقال بالمجتمع الإنساني المتمايز المتناحر إلى مجتمع إنساني واحد متعاون، وذلك في إطار «وحدة الأسرة البشرية» من غير تفاضل بين الأقوام إلا بالتقوى، وفي إطار «حق الجميع في الحياة الكريمة» من غير تمايز في الأعراق أو في الأجناس أو في الأديان، وفي إطار «وحدة المصالح الاقتصادية للجميع» دون استئثار من قبل الكبار والأقوياء على حساب الصغار والضعفاء، وفي إطار «العدالة المطلقة بين الجميع حماية لسلامة الإنسان»).

ثم ذكر أن هيئة الأمم المتحدة أخذت تدعو لهذه المفاهيم العالمية الجديدة التي (تدعو إلى محو التمايز فيما بين الأسرة البشرية وأجناسها قومياً وعرقياً واقتصادياً وفقاً لمبادىء حقوق الإنسان)[1]، ولهذا يقول أحد الماسون: «إن ما تبغيه الماسونية هو وصول الإنسانية شيئاً فشيئاً إلى النظام الأمثل الذي تحقق فيه الحرية بأكمل معانيها وتزول منه الفوارق بين الأفراد والشعوب ويسود فيه العلم والجمال والفضيلة»[2].

ولكن الحقيقة أن الغرب قد أعدّ العدة لتوحيد أوربا في دولة واحدة وستكون لهذه الدول أقوى الروابط (الولايات المتحدة) والتي تطمح إلى زعامة الغرب كله واحتفاظها بقوتها وبقاء الضعيف على ضعفه. ولنتساءل هنا: أي قانون بشري يريد دعاة العالمية أن يعيش الناس تحت لوائه؟ هل هو ميثاق هيئة الأمم المتحدة؟ فهي منظمة السيطرة فيها لليهود والنصارى

---

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي الشهرية العدد الخامس، السنة التاسعة عشرة، جمادي الأولى سنة (١٤٠١هـ).

(٢) الإسلام والحضارة الغربية، الدكتور محمد محمد حسين، ص١٩٧.

وأهل الإلحاد، وأكبر دليل على ذلك ما يسمى (حق الفيتو) الذي يرفض كل ما يعارض مبدأ المسيطرين. أم أنه الخبث والدهاء في تخدير الأمة الإسلامية والعودة بها إلى الجاهلية وتعطيل الجهاد لأن العالمية المزعومة لا تقرُّه ولا ترتضيه؟ أم أنها المؤتمرات العربيَة والإسلامية التي عطَّلت الجهاد كما في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في (دكار)، أم أنها المؤتمرات التي عقدت في الرباط والدوحة والذي فتح الأخير العالم الإسلامي لرؤوس الأموال الصهيونية للسيطرة على العالم العربي وخيراته لخدمة المال اليهودي، أم هو الغفلة والخداع بما خطط له دعاة هذا المذهب الجاهلي الفاسد حيث أرادوا تمريره على الإسلام وأهله.

إنه كيد الجاهلية المعاصرة الذي ينخدع به من أخذت السذاجة حقها الكبير من نفسه معتبراً أن القضية قضية اقتصادية فقط. وبما أن الأمر ظاهره الاقتصاد وباطنه حركة معاول الهدم ضد الإسلام. وهب أن الاقتصاد هو المطلوب وحده، فإن الاقتصاد العربي بدخوله تحت جاهلية العولمة فإن قاعدته تتصدع، وفعلاً بدأ الانهيار وهو مهدد باختراق خارجي متعدد الاتجاهات، وذلك من خلال ضعف إنتاجه واعتماده على الإنتاج الخارجي، وتدني مستوى التجارة العربية واستيرادهم أكثر من تصديرهم، إضافة إلى صعوبة الحصول على السلع الأساسية إلا عن طريق العالم الخارجي. فالنظام المزعوم هذا نظام هيمنة دولية للسيطرة على التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، سيتم من خلاله تهميش الدول النامية أكثر مما هي عليه اليوم. وإن الدول العربية والإسلامية ليس لها أن تقف مستسلمة لكل ما يجري حولها معطية عقال مصيرها للآخرين يجدون لها دورها وحركتها في مجرى الحياة[١]. وبالتالي يقررون وجودها أو نسفها في اليمّ، وأنه لا نصر لها ولا عزَّ لها إلا بترك هذه الجاهلية وكل الجاهليات المعاصرة. ثم العودة إلى المعين الصافي الذي به انتصرت الأمة وسادت العالم، ألا وهو (الإسلام).

---

(١) انظر العولمة وانعكاساتها على الدول العربية، عبداللطيف هميم /٤١.



وإن كل المذاهب البشرية القائمة في الأرض التي لا تستمد وجودها من الكتاب والسنة هي محادة لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]. فالذين يحادّون ويشاقّون ويحاربون الله ورسوله لهم الخزي والهلاك والذل كما هو حال من قبلهم من الذين واجهوا الرسل عليهم السلام[1]. وإن الإسلام هو الدين الذي تتحقق فيه الحياة الكريمة كما بيَّن القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. وإن الإسلام هو الدين الذي تتحقق فيه العدالة في أسمى صورها ويتحقق فيه الأمن، فلا خوف إلا من الله الذي يكسر شوكة كل طاغوت يريد إذلال الناس له من دون الله. وإن الإسلام هو الذي يحصل به التمكين الرباني كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].



(١) انظر في ظلال القرآن ٣٥٠٧/٦، والأساس في التفسير، سعيد حوى ٥٧٨٧/١٠.



بسم الله الرحمن الرحيم

مجمع اللغة العربية الأردني
ص.ب ١٣٧٦٨
عمان - الأردن

الأخ الأستاذ الفاضل وليد - حفظه الله -

تحية طيبة وبعد

فمنذ عهد زمان طويل لم أسعد بشيء منك من رسالة أو نحوها.
أخي أخص «الحكمة» ببحثي هذا، وآمل ان تدوم صلتي بالحكمة - حرسها الله -

عمان في ١٠/٤/٢٠٠١

المخلص
ابراهيم السامرائي

(١) هذه الرسالة أرسلها العلامة اللغوي العراقي الدكتور إبراهيم السامرائي رحمه الله، وكتبها قبل موته بعشرة أيام، حيث توفي بتاريخ ١٤٢٢/٢/١هـ الموافق ٢٠٠١/٤/٢٥م، والبحث المرفق في هذه الرسالة هو آخر ما خطته يده، وهو بحث [فوائد ولقطات معجمية]، علماً أن العلامة اللغوي الجهبذ من أعضاء هيئة التحكيم في مجلتنا قام بدور كبير في تحكيم بحوث اللغة العربية، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الله فسيح جناته [رئيس التحرير].